تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لمسكويه

بقلم :
الدكتور حسن شحاته سعفان
رئيس قسم الاجتماع بجامعة الأزهر

١ — حياة مسكويه وبيئته الثقافية والاجتماعية

ليس لدينا مراجع وافية عن حياة أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب باسم مسكويه . وكل ما نجده إشارات فى بعض المراجع إلى حوادث جزئية فى حياته أو إلى قطع من نثره وشعره فى مناسبات خاصة لأنه كان أديباً إلى جانب كونه فيلسوفاً وأخلاقياً : وذلك ككتاب تتمة اليتيمة لأبى منصور عبد الملك الثعالبى الذى يتكلم فى الجزء الأول عن « أبى على مسكويه الخازن » ، ويقول عنه « إنه فى الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر »[1] ثم يذكر أمثلة من شعره ، وفى رسائل أبى بكر الخوارزمى نجد رسالة منه إلى مسكويه يواسيه فيها بمناسبة زواج أمه بعد وفاة أبيه ، وهو الزواج الذى حزن من أجله مسكويه حزناً شديداً ، إذ كان يعده محنة ويقول الخوارزمى فى هذه الرسالة » « .. وبلغنى ما اختارته

(١) الثعالبى : تتمة اليتيمة ، الجزء الأول ، طهران سنة ١٣٥٣ ، نشره عباس إقبال ، ص ٨ (القسم الثالث : فى محاسن أهل الرى وهمذان وأصفهان وسائر بلاد الجبل) .

الوالدة صانها الله تعالى ، فحمدت الله تعالى الذى رزقك والداً لا يلزمك حق أبوته ووعدك أخاً لا يحملك حق أخوته .... ولا تذهب نفسك حسرات على ما سبقك عليه الدهر وغلبك عليه الرزق ، فلا حمية فيما أحل الله ولا مضايقة من حيث وسع الله...؛ والحمد لله أن كان العقوق من ناحيتها[1] » . ونجد مثل هذه الإشارات عند كثير من معاصريه وذلك مثل الطوسى .... ولعل ياقوت الرومى فى كتابه « معجم الأدباء » يعد على رأس المترجمين القلائل الذين تناولوا حياة مسكويه فى شئ قليل من التفصيل[2] ، إذ لم يذكره مثلا ابن خلكان فى وفيات الأعيان ، ولا صاحب فوات الوفيات .

لقد عاش مسكويه الجزء الأكبر من حياته فى القرن الرابع الهجرى ، إذ من المؤكد أنه توفى سنة ٤٢١ هجرية (١٠٣٠ ميلادية) على ما ذكره ياقوت

(١) رسائل أبى بكر ، الجزء الأول ، القسطنطينية سنة ١٢٩٧ ، ص ١٧٣ .

(٢) الجزء الخامس من ص ٥ إلى ص ١٩ .

نقلا عن يحيى بن منده ، وكان ميلاده بالرى فى حوالى سنة ٣٣٠ فيما يظن كثير من العلماء وعلى رأسهم مرجوليوث ، فهو إذن قد عاش حياته كلها فى ظل دولة بنى بويه التى بدأت سنة ٣٢٠ وانتهت سنة ٤٤٧ .

ودولة بنى بويه كانت من الدويلات الكثيرة التى انقسمت إليها الدولة الإسلامية فى أيام ضعفها لاسيما ابتداء من أوائل القرن الثالث حيث تكونت دول مستقلة فعلا عن الخلافة فى بغداد وإن كانت قد احتفظت بخضوعها للخليفة من الناحية الاسمية ، إذ بعد أن استقلت الأندلس ، ثم المغرب تحت حكم الأدارسة فى القرن الثانى ، استقل السامانيون بخراسان وتركستان ، والفاطميون بالمغرب والطولونيون بمصر ... فى القرن الثالث . ثم جاء القرن الرابع الذى استقل فيه بنو حمدان بالشام والغزنويون بأفغانستان والهند ... وظهر بنوبويه فى بلاد الديلم واستولوا على فارس والرى وأصفهان واستطاعوا أن يجعلوا الخليفة فى بغداد تحت سيطرتهم ، فلم يبق للخلفاء من السلطة إلا المظهر ، بل إنهم أذلوا خلفاء بغداد لاسيما المستكفى والمطيع والطائع بعد أن ضم عضد الدولة العراق وبغداد لحكمه :

وكان أمراء بنى بويه كمعز الدولة أحمد وهمام الدولة وشرف الدولة وبهاء الدولة وجلال الدولة وغيرهم يتسابقون فى تشجيع العلوم والآداب فى ولاياتهم محاكين بذلك الخلفاء العباسيين فى العصر الذهبى للدولة العباسية لاسيما فى عهود هرون الرشيد والأمين والمأمون إذ كان البويهيون يحكمون الجزء الجنوبى من فارس فجعلوا من اصطخر وشيراز ونهاوند ودينور وبسطام والرى عواصم للأدب والعلم والفلسفة ، فأخرجت هذه البلاد فى أيامهم من المحدثين والفقهاء والنحاةوالفلاسفة والمتصوفة والأدباء ، بل والعلماء مالا يحصى عددهم[1] .

ومما أذكى هذه الحضارة أن هذه المدن بعينها كانت فى بلد ترجع حضارته إلى عصر بعيد قبل الإسلام ، وكان بين العلماء الذين عرفهم مسكويه وصاحبهم أبو الطيب الرازى الكيمائى وأبوحيان التوحيدى والمهلبى وأبوبكر الخوارزمى وبديع الدين الهمذانى وأبومنصور الثعالبى النيسابورى وأبو الحسن العامرى ، ثم على وجه الخصوص ابن العميد الذى كان وزيراً لركن الدولة صاحب بلاد الرى والجبل واستمر وزيراً اثنتين وثلاثين سنة حتى مات سنة ٣٦٠ . ولقد عين ابن العميد « مسكويه » خازناً لمكتبته الكبيرة ومن هنا لقبه بعضهم بالخازن .

ولقد تفوق ابن العميد فى علوم كثيرة كالهندسة والمنطق والفلسفة والالهيات والطبيعة والأدب على ما ذكر مسكويه فى كتابه تجارب الأمم ،واتصل مسكويه أيضاً بالصاحب بن عباد الذى كان من تلاميذ ابن العميد ولكنه كان متبحراً فى العلوم الشرعية واللسانية والأدبية وكان له منتدى قل أن يجتمع لغيره من الناس بل والخلفاء وذلك فيما يذكر الثعالبى . وكان الصاحب كاتباً لابن العميد ، ثم أصبح وزيراً لمؤيد الدولة ثم فخر الدولة وتوفى سنة ٣٨٥ .

فبفضل تشجيع الأمراء البويهيين وبفضل جهود عضد الدولة والوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد كان هذا الجزء من فارس وهو الذى عاش فيه مسكويه فى منتهى الخصب العلمى والأدبى ، إذ كان كل منهم على إمارته أو وزارته عالماً أديباً ، يرى أول ما يجب عليه أن يزين بلاطه ومجلسه بالعلماء والأدباء .

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ، طبعة ثانية ، ص ٢٤٦ .

وفى حوالى سنة ٣٨٠ هـ علا شأن مسكويه إذ قربه بهاء الدولة واتخذه ناصحاً له ، فارتفع قدره فى الإمارة وأدى ذلك به — فيما يبدو — إلى نسيان من ساعدوه فى شبابه ، فترفع فيما يقول المترجمون عن مصاحبته الصاحب ابن عباد ، ونشأ نوع من الجفاء بين الرجلين ، أدى إلى هجاء مسكويه للصاحب بعد وفاته بقصيدة جاء فيها :

قد كان أهوج رث العقل مقتحما
على الدّنيات وقافا لدى التهم
ومن يدرمثل عيني طيشه لما
لم يرض من فخذ الأحداث باللمم

ثم يقول عنه :

دمى جبين أبي العباس فهو يرى
تقبير كل جبين واضح بدم

ويبدو أن مسكويه كان من بيت ثراء فى الأصل ثم ضاعت ثروته ، كما يبدو أنه كان طموحاً ولكن الأيام لم تحقق له كل أمانيه ، وهذا يفسر مسحة الحزن والكآبة التى تبدو فى شعره الذى امتلأ بأبيات تشكو الدهر وقسوته والأيام ومرارتها .

قاسيت أحوال هذا الدهر مرتكبا
أهوالها وصريعا غير مرتكب
ومن تعود عض السيف هامته
هانت على إليتيه عضة القيب

أو كقوله فى نفس المعنى وهو ذم الدهر :

من عذيرى من حادثات الزمان
وجفاء الإخوان والخـلان
شاب رأسى وقل مالى وصدت
عنى البيض وانتحى غـلمانى

وتمت حلكة الصورة بزواج والدته ، وهو الزواج الذى كان يعده محنة قاسية له وفضيحة كبرى . وحدثت بينه وبين علماء زمانه ولاسيما علماء الرى صلات متينة ورسائل فى أمور شتى ، ولكن يبدو أيضاً أن كثيراً من رفقائه لم يكن باراً به فى محنه مما أدى به إلى عدم الوفاء فى أحيان كثيرة بخلانه وأصدقائه . وذكر عنه ياقوت أنه كان مجوسياً وأسلم ، ولا ندرى مدى صحة هذا القول بالرغم من أن اسم أبيه « محمد » إذ يبدو أن كثيراً من الناس كانوا يتخذون أسماء إسلامية ، ولم يكونوا مسلمين وبالعكس كان كثير من أبناء الفرس المسلمين يتخذون أسماء غير إسلامية برغم إسلامهم . ولكن مسكويه كان من المتمسكين بالشريعة الإسلامية المتحمسين لها ، ففى وصيته التى ذكرها ياقوت فى ذيل ترجمته يذكر التمسك بالشريعة كباب من الأبواب الخمسة عشر التى تتألف منها هذه الوصية .

والظروف القاسية التى مرت بمسكويه قد انعكست بشكل جلى فى وصيته التى ذكر فى أبوابها قلة الثقة بالناس وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد وحسن احتمال الغنى والفقر وعدم إضاعة العمر إلا فى المهم وترك الخوف من الموت والفقر . . . من بين الأبواب التى وصى بها أهل عصره .

وقد توفى مسكويه سنة ٤٢١ بعد أن ترك كثيراً من المؤلفات التى ما زال جزء كبير منها مخطوطاً حتى اليوم . وعلى رأس كتبه المطبوعة كتاب التهذيب الذى طبع عدة طبعات فى مصر ابتداء من ١٢٩٦ هجرية ثم فى سنى ١٣١٧ ، ١٣٢٣ ثم ١٣٢٦ هجرية ، كما طبع فى بيروت سـنة ١٩٦١ م . وكتاب السعادة الذى طبع فى مصر سنة ١٩١٧ م ، وقدم له السيد على الطوبجى وكتاب الفوز الأصغر الذى طبع فى

بيروت سنة ١٣١٩ هـ والقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ ، وتجارب الأمم فى عدة أجزاء ، وهو الذى نشر سنة ١٣٣٢هـ بالقاهرة ، ثم نشر سنة١٩٥٢ ميلادية كتاب جاويدان خرد أو الحكمة الخالدة بتقديم الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى . ولقــد اهتم الأستاذ الدكتور عبد العزيز عزت بابن مسكويه وألف كتاباً سنة ١٩٤٦ عن تهذيب الأخلاق . وإلى جانب الكتب المطبوعة ثمة كثير من المؤلفات المخطوطة مثل رسائله فى اللذات والألم وفى الطبيعة وفى جوهر النفس ، ومقال فى النفس والعقل ، والتمييز بين الدهر والزمان وطهارة النفس . . . الخ .

٢ ــ أهمية كتاب تهذيب الأخلاق

يقول مسكويه فى الغرض من تأليفه كتاب التهذيب « غرضنا فى هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً ، تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ، ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمى . والطريق فى ذلك أن نعرف أولا نفوسنا : ما هى وأى شىء هى ولأى شىء أوجدت فينا ؟ »[1] إذن أهمية هذا الكتاب ترجع إلى تقويم الأخلاق والسلوك على أساس دراسة علمية سليمة وفق المستوى التى وصلت إليه العلوم آنذاك . والواقع أن كتاب التهذيب يمثل العصر الذى وجد فيه أصدق تمثيل ، ففى ذلك العصر كما يقول أحمد أمين كان تيار الترف شديداً جارفاً عند طبقات الأمراء والخلفاء ومن يتصلون بهم إلى جانب البؤس الشديد لكثير من الطبقات الأخرى . وأدى الترف والأناقة إلى خلق قوانين متعارفة لكل شىء وألفت فى ذلك الكتب المطولة ، فألفــوا فى « حدود الظرف » وما يقدم من الأطعمة وما يؤخر و « آداب الحمام » و « آداب الزينة » وطريقة معاملة الأمراء والخلفاء ... ومن أمثلة ذلك مثلا كتب مرآة المروآت ومكارم الأخلاق واللطائف والظرائف والعقد النفيس فى نزهة الجليس للثعالبى النيسابورى . أى أن العلاقات الاجتماعية بين الأفراد فى هذا العصر كانت محل دراسة ومؤلفات تؤلف على نهج علمى لتحديدها . ولا شك أن علم الأخلاق على رأس الدراسات التى تحدد علاقة الفرد بغيره من أفراد المجتمع على اختلاف طبقاتهم ، فكان هو الآخر محل دراسة الكثير من العلماء المعاصرين لمسكويه . ومسكويه يعرض فى كتــابه بشكل متضمن حيناً صريح حيناً آخر الأمراض الأخلاقية التى انتشرت فى عصره من العجب والخيــلاء عند بعض الأمراء والملوك والكراهية التى انتشرت بين بعض الطبقات والحسد والغيرة والمشاحنات ، لأن عصره كان عصر تنافس بين عناصر الدولة الإسلامية من ترك وفرس وعرب ، بل وتنافس بين أمراء كل عنصر من هذه العناصر . وكان ثمة حقد دفين بين الطبقات لأن ثروات الأمــراء فى الدولة البويهية وغيرها وصلت إلى أرقام خيالية بينما الطبقات الأخرى ومنها طبقة العلماء كانوا لا يجدون ما يسدون به رمقهم . فمثلا خلف عضد الدولة البويهى حوالى ثلاثة ملايين من الدنانير الذهبية وأكثر من مائة مليون درهم غير الجواهر واليواقيت واللآلئ وغيرها . وهذا فى الوقت نجد فيه أباحيان التوحيدى وهو من العلماء البارزين يقول واصفاً ضيق عيشه « وقد اضطررت ... فى أحوال كثيرة إلى آكل الخضر فى الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع

(١) تهذيب الأخلاق ، طبعة بيروت سنة ١٩٦١ ، ص ٥ .

الدين والمروءة وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه القلم ويطرح فى قلب صاحبه الألم [1]. كل هذه الأحوال نتجت عنها أمراض اجتماعية ونفسية خطيرة تفشت فى المجتمع الإسلامى إلى جانب التنافس والتناخر على السلطة والمراكز، وهذا ما عالجه مسكويه فى كتابه فى أكثر من مقال ومطلب كما سنرى . وإلى جانب المشكلات النفسية والاجتماعية يعالج مسكويه قواعد علاقات الأفراد بعضهم ببعض فى شتى دقائقها أو ما يسميه الفرنجة قواعد البروتوكول وقواعد « الإتيكيت » أو اللياقة والأناقة ، كما فعل معاصروه من العلماء .

كما يصور هذا الكتاب تأثر الفكر الإسلامى العربى بالثقافات التى ترجمت مؤلفاتها ولاسيما الثقافة اليونانية . ذلك أن حركة ترجمة التراث العلمى اليونانى والهندي والفارسى قد بدأت منذ عهد أبى جعفر المنصور سنة ١٣٦ وبلغت أوجها فى عهد الرشيد (١٧٠ – ١٩٣) ثم المأمون (١٩٨ – ٢١٨) ، فترجمت مؤلفات لأفلاطون وأرسطو وجالينوس وإقليدس وآرشميدس وبطليموس . . . إلى آخر كل هؤلاء المؤلفين ، وذلك إلى جانب كثير من كتب الأفلاطونيين المحدثين كأفلوطين وفرفريوس الصورى، واسكندر الأفروديسى وأبروقلس ... ويقرر مسكويه فى كتابه أنه قرأ كثيراً من هذه الترجمات وتأثر بها ، فلقد تأثر مسكويه فى كتابه هذا بكتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس وكتاب النفس ثم بكتاب المقولات لأرسطو ، كما تأثر بكتاب الأخلاق وكتاب التشريح وغيرهما من كتب جالينوس ثم بكتب أبقراط فى الأمراض الحادة والأخلاط وطبيعة الإنسان، كما تأثر بمعاصريه من العلماء كأبى حيان وغيره . وفى الكتاب أثر الثقافة الفارسية والهندية بالقصص التى يوردها أحياناً عن كليلة ودمنه وغيره من الكتب المترجمة . فالكتاب يشهد باطلاع ضخم وعميق لمؤلفه . ولقد امتدح الطوسى كتاب التهذيب فقال :

بنفسى كتاباً حاز كل فضيلة
وصار لتكميل البرية ضامناً
مؤلفه قد أبرز الحق خالصاً
بتأليفه بعد ما كان كامناً
ووسمه باسم الطهارة قاضياً
به حق معناه ولم يك مائناً
لقد بذل المجهود لله دره
فما كان فى نصح الخلائق خائناً

٣ — محتويات التهذيب

وكتاب التهذيب مقسم إلى سبع مقالات عالج المؤلف فيها على التوالى :

١ — النفس
٢ — مراتب القوى وشرفها
٣ — الفرق بين الخير والسعادة وأقسام الخير
٤ — ظهور السعادة فى الأفعال الناشئة عن الفضائل
٥ — فى الاتحاد وحاجة الناس بعضهم لبعض
٦ — علاج أمراض النفس .
٧ — رد الصحة على النفس ومعالجة أمراضها .

وكثير من هذه المقالات مقسم إلى فصول أو « مطالب » وسنعرض مع شىء من التحليل لكل مقال على حدة :

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ، عن ضحى الإسلام لأحمد أمين .

٤ — النفس والفضائل

يبرهن فى هذا المقال على أن النفس ليست بجسم ولا حالة من أحول الجسم وإنما هى شىء آخر مفارق له فى جوهره ، متخذاً نفس البراهين التى أوردها أرسطو تقريباً . والنفس لاتأخذ علمها من الحواس ، ولكنها تأخذ هذا العلم من ذاتها أى من العقل . وهى تواقة إلى العلوم والتــأمل ، كما أن قوى النفس تنقسم إلى ثلاثة أقسام : قوة ناطقة وتسمى الملكية وآلتها الدماغ ، وقوة غضبية وتسمى السبْعية وآلتها القلب ، والقوة الشهوية وهى التى تسمى بالبهيمية وآلتها التى تستعملها من البدن الكبد . والفضائل والرذائل تقابل هذه القوى ، فالحكمة فضيلة النفس العاقلة ، وهى تتأتى عن العلم ، والسخاء هو فضيلة النفس البهيمية وهو يتأتى عن العفة ، وفضيلة النفس الغضبية الشجاعة وهى تتأتى عن الحلم . وهذه الفضائل الثلاث يحدث عنها إذا اعتدلت فى نسبة بعضها إلى الأخرى فضيلة رابعة هى كمالها وتمامها وهى فضيلة العدل . وعلى ذلك فالفضائل كما أجمع عليها الحكماء أربع وهى الحكمة ، والعفة والشجاعة والعدالة ، وأضدادها الجهل والشره والجبن والجور . وهذه الفضائل ليست إلا أجناساً يندرج تحت كل منها أنواع كثيرة ، ففضيلة الحكمة تحتوى على أنواع بها يكون حسن الاستعداد للحكمة وذلك كالذكاء والذكز (التذكر) والتعقل وسرعة الفهم وقوته وصفاء الذهن وسهولة التعلم . وفضيلة العفة يندرج تحتها فضائل كثيرة منها الحياء والدعة والصبر والقناعة والدماثة والوقار والورع ... الخ ، ويندرج تحت الشجاعة فضائل كبر النفس وعظم الهمة والثبات والحلم والشهامة وعدم الطيش ... ، كما يندرج تحت السخاء فضائل الكرم والإيثار والمواساة والسماحة ... أما العدالة فتندرج تحتها فضائل لا يحصى عددها كالصداقة والألفة ، صلة الرحم وحسن الشركة وحسن القضاء والتودد والعبادة ومكافأة الشر بالخير واستعمال اللطف وترك المعــاداة « وترك الشره فى الكسب الحلال » والرجوع إلى الله وإلى عهده وميثاقه عند كل قول يتلفظ به ، والصداقة ...

والفضائل ليست إلا أوساطاً بين أطراف متباعدة وهى الرذائل ، فكل فضيلة وسط بين رذيلتين فالحكمة وسط بين السفه والبله ، ويقصد من السفه هنا استعمال القوة الفكرية فيما لا ينبغى وكما لا ينبغى ، والذكاء وسط بين الخبث والبلادة ، والعفة وسط بين الشره وخمود الشهــوة والشجاعة وسط بين الجبن والتهور والسخاء وسط بين التبذير والتقتير . أما العدالة فهى وسط بين الظلم والانظلام أى تحمل الظلم . ذلك أن الظلم هو « التوصل إلى كثرة المقتنيات من حيث لا ينبغى وكما لا ينبغى، وأما الانظلام فهو الاستجداء (العطاء) والاستحاته (تحمل الظلم) فى المقتنيات لمن لا ينبغى كما لا ينبغى » أى أن الانظلام أن تتنازل عن حقوقك حيث لا ينبغى .

ولا شك أن الفضـــائل خاصة بالإنسان دون الحيوان ، والإنسان لا يستطيع وحده تحقيق الفضائل فهو لكى يكمل ذاته فى حاجة إلى معاونة أناس كثيرين من بنى جنسه وعلى ذلك خلق الإنسان مدنياً بطبعه ، أى خلق محتاجاً إلى مدينة من بنى جنسه يعيش فيها فى تعاون تام معهم حتى تتحقق له السعادة . فالإنسان مضطر إلى مصافاة الناس ومعاشرتهم بالحسنى ومحبتهم المحبة الصادقة لأنهم يكملون ذاته ويتممون إنسانيته ، وهم محتاجون إليــه أيضاً لأنه يكمل إنسانيتهم . فاجتماع الناس فى حياة مدنية إنمــا يؤدى

بهم إلى تحصيل الفضائل الانسانية . ولذلك يحمل مسكويه على الذين رأوا الفضيلة فى الزهد وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم ، إما بملازمة المغارات فى الجبال وإما ببناء الصوامع فى المفاوز وإما بالسياحة فى البلدان » ، لأن مثل هؤلاء « لا يحصل لهم شئ من الفضائل الإنسانية » ولا تظهر فيهم العفة ولا الجدة ولا العدالة » ، بل تصير قواهم وملكاتهم التى ركبت فيهم باطلة . فالمعزولون عن المجتمع والحياة الاجتماعية عند مسكويه ليسوا فضلاء وليسوا أعفاء وليسوا عادلين ، رغم أنه يظن بهم الفضيلة والعفة والعدل . ذلك أن النـــاس يظنون أن هؤلاء فضلاء لأنه لم يصدر عنهم رذائل أو ما يضاد الفضائل ، وهذا خطأ لأن الفضيلة ليست ضداً ولا عدماً بل هى فعل إيجابى يظهر عند مشاركة الناس الحياة الاجتماعية ، وليس بالفاضل من يمتنع عن الرذائل فقط ، لأن مجرد الامتناع عن الرذيلة لا يكون الفضيلة ، بل الفضيلة هى المشاركة الإيجابية فى الحياة حتى تكثر الخيرات وتتحقق السعادة .

ذلك موضوع المقالة الأولى ومنها نرى أن مسكويه تأثر بأفلاطون وأرسطو فى تقسيمه للنفس والفضائل ، وأثر الحياة الاجتماعية ، ولكن إذا كانت هذه هى حال الفضائل ، فكيف يتكون الخلق الإنسانى الذى يؤدى إليها ؟ ذلك هو موضوع المقالة الثانية .

٥ — الخلق ، ماهيته وكيفية تكونه

« الخلق — فيما يرى مسكويه — حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية . وهذه الحال تنقسم إلى قسمين : منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج كالإنســـان الذى يحركه أدنى شئ نحو غضب ويهيج من أقل سبب ... ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب » . أى أن السلوك الإنسانى يحتوى على عنصرين ، عنصر طبيعى غريزى والآخر مكتسب بالعادة والمران . وبعد أن يعرض فى هذه المقالة الثانية لأراء العلماء كالرواقيين وجالينوس وأرسطو وغيرهم ، وبعد بحثه لقضية ما إذا كان الخلق طبيعياً لا يمكن تغييره أو أنه غير طبيعى يمكن تغييره بالمواعظ والتدريب ينضم إلى هذا الرأى الأخير ، لأن الأطفال ينشأون بحسب الأسلوب الذى ربوا عليه فى المجتمع ، ولكن مع ذلك يختلف الأفراد فى قبولهم الأخلاق الفاضلة اختلافاً بيناً ونجد منهم من هـــذه الناحية مراتب كثيرة ودرجات لا حصر لها ، إذ منهم « المتــوانى والممتنع والسهل السلس ، والفظ العسر ، والخير والشرير والمتوسطون بين هذه الأطراف ... » فالناس يتباينون فى ذلك حتى لنجد منهم من هو أقرب للحيوان فى تخلقه ومنهم من هو أقرب للملائكة ، وبين هذا وذاك مراتب لا حصر لها .

نستطيع إذن أن نقوم الخلق وأن نكمله ، وأن ننزع عنه الرذائل ، وتلك هى مهمـــة « صناعة » الأخلاق التى هى أفضل « الصناعات » ، إذ صناعة الأخلاق هى التى « تعنى بتجويد أفعال الإنسان بما هو إنسان » ، ولكن ما هى الأسس التى تقوم عليها « صناعة الأخـــلاق » ؟ هنا يذكر مسكويه بعض المبادئ .

أولا — الغرض من علم الأخـــلاق الوصول بالإنسان إلى الكمال ، وكمال الإنسان يختلف عن كمال المركبات الأخرى ، كالحيوان والنبات والجماد من

حيث أن كماله تفكير وعمل . ذلك أن كمال الإنسان كمالان ، كمال العلم وكمال العمـــل ، أو النظر والتطبيق ، ومهمة علم الأخلاق تنحصر فى الجانب العملى ، أى تقويم الخلق وتحقيق « الكمال الخلقى فى الفرد بحيث لا تتصارع فى داخل نفسه القوى المختلفة وتصدر أفعاله كلها بحسب القوة العاقلة ، وينتهى علم الأخـــلاق إلى « التدبير المدنى الذى يرتب الأفعال والقوى بين الناس حتى تنتظم إلى ذلك الانتظام ، ويسعدوا سعادة مشتركة كما كان ذلك فى الشخص الواحد .

ثانياً – اللذات الحسية لما كانت مشتركة بين الإنسان والحيوان فإنها ليست اللذات الجديرة بالإنسان، بل اللذات العقلية التى يتميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات هى الجديرة بأن يبحث عنها .

ثالثاً – يجب أن ينشأ الأطفال على السلوك السليم وفق برنامج يسير وفق ظهور قوى النفس فى الأطفال إذ أول ما يظهر النفس الشهوية ، ثم بعد ذلك النفس الغضبية وأخيراً النفس العاقلة . وبذلك وضع مسكويه برامج لتنشئة الأطفـــال على أداب الأكل والشرب والملبس (القوة الشهوية) وعلى الشجاعة والجرأة (النفس الغضبية) ثم على تحكيم العقل فى الأفعـــال (النفس الناطقة) .

فالأخلاق تستهدف الوصول بالإنسان إلى الكمال وهذا الكمال يؤدى به إلى السعادة وإلى الخير ولكن ما السعادة وما الخير وما الفرق بينهما ؟ هذا موضوع المقالة الثالثة .

٦ – السعادة والخير ، ماهيتهما وأقسام الخير

هنا يعرض مسكويه لرأى أرسطو فى التفرقة بين الخير والسعادة ، إذ الخير ما يقصده الكل بالشوق فهو طبيعة تقصد لذاتها ، والخير له ذات وهو الخير العام للناس من حيث هم ناس فهم بأجمعهم مشتركون فيه، أما السعادة فهى خير خاص بفرد ما ، فليس لها ذات معينة وهى تختلف بالإضافة لقاصديهـــا من شخص لآخر . وعرض بعد ذلك لاختلاف الحكماء القدامى فى فكرتهم عن السعادة ، إذ ذهب بعضهم وعلى رأسهم أفلاطون إلى أن السعادة تخص النفس وحدها دون البدن ، وعلى ذلك فلن تحدث سعادة للإنسان طالما ظلت النفس متعلقة بالبدن . وإنما تكون سعادة النفس بعد مفارقتها للبدن لأن حاجات الجسم وافتقاره إلى أشياء كثيرة تعوق النفس عن الحكمة والتأمل ، ووفق هذا الرأى لا سعادة للإنسان إلا بعد الممات . وذهب فريق آخر من الفلاسفة وعلى رأسهم أرسطو إلى أن السعادة تحدث للإنسان مع اتصال النفس بالبـــدن وتختلف من شخص لآخر ، فالفقير يرى سعادته فى الثروة والمريض يرى أنها فى الصحة والذليل يرى أنها فى السلطان والفاضل يرى السعـــادة فى إفاضة المعروف على المستحقين . وكل تلك سعادات متى حصل عليها صاحبها فى الوقت المنـــاسب وبالقدر المناسب ، وما كان منها مراداً للحصول على شىء آخر فذلك الشئ الآخر يكون أجدر بلفظ السعادة . ويقف مسكويه موقفاً وسطاً بين هذين الرأيين : إذ لما كان الإنسان مكوناً من روح وجسم وما دام الإنسان إنساناً فلا تتم له السعادة إذن إلا بتحصيل السعادة الروحية والسعادة البدنية . والسعادة تكون على مرتبتين : المرتبة الأولى : أن يكون الشخص متعلقاً بأحوال الأشياء الجسمانية سعيداً بها ولكنه مع ذلك يطالع الأمور الروحية مشتاقاً إليها باحثاً عنها ومتحركاً نحوها . أما المرتبة الثانية فهى أن يكون الإنسان متعلقاً بالأشياء الروحية سعيداً بأحوالها العليا ، وهو مع ذلك يطالع الأمور البدنية معتبراً بها ، ناظراً فى علامات القدرة الإلهية ودلائل الحكمة البالغة مقتدياً بها . ولكن إذا قارنا فيما يرى مسكويه بين هاتين المرتبتين وجدنا أن المرتبة الأولى لا تخلو من الآلام والمنغصات

والحسرات وهى أمور تلازم الأشياء الحسية التى تشغل الإنسان عن السمو بروحه نحو الملأ الأعلى كلية. أما المرتبة الثانية ، فيكون الإنسان فيها سعيداً سعادة تامة ، فأنه وقد قطع كل صلة بالمحسوسات لن يتألم لشيء ولا لأى حادث ، وهو بانشغاله بعالم الروح سينتقل من حال إلى حال (على طريق الصوفية) حتى يصل إلى مرتبة الملائكة وذلك عن طريق العشق الإلهى .

فهذه المرتبة الأخيرة هى أسمى مراتب السعادة فإذا وصل الإنسان إلى سعادة النفس بانشغال نفسه بعالم الروح فإنه لن يتأثر البته بما فى هذا العالم من نحس قد يصيبه أو أية واقعة قد تحدث له فى حياته ، أو تصيب أولاده بعد مماته . ويذكر هنا مسكويه رأى كثير من العلماء وعلى رأسهم أرسطو ، مؤكداً أن طلب السعادة فى الأمور المتعلقة بعالم المادة يكون لذيذاً فى البداية وقد ينتهى به الأمر فى النهاية إلى إلى أن يكون مؤلماً ومكروهاً ، ولكن طلب السعادة فى الأمور المتعلقة بعالم الروح يكون مؤلماً فى البداية لذيذاً ممتعاً فى النهاية .

ولكن ما موقف فضائل العدالة والشجاعة والعفة من السعادة ؟ ذلك موضوع المقالة الرابعة .

٧ ــ السعادة فى فضائل العدالة والشجاعة والعفة

السعادة لا شك تحدث لمن يقوم بممارسة الفضائل من العدالة والشجـاعة والعفة وما يندرج تحتها من فضائل نوعية ــ كما بينا ــ ولكن لكى تؤدى الفضائل إلى السعادة لابد أن تكون مستهدفة بنية خالصة لا لأمور زائفة خارجة عنها . ففى حالة الشجاعة نجد أشخاصاً فيما يرى مسكويه ــ يتصرفون تصرف الشجعان وهم ليسوا كذلك كمن يقدم على الحرب والقتال لا لغرض إلا لأنه سينال من ذلك أجراً ، فإنه يفعل هذا « بطبيعة الشره لا بطبيعة الفضيلة التى تدعى شجاعة » . كما لا يعد كل من يقـدم على الأهوال شجاعاً ولا كل من لا يخاف الفضائح . فالشجاعة هى الإقدام والصبر على الأهوال ومقاومة الشهوات حيث تجب هذه الأمور . « على أن لذة الشجاع ــ على حد تعبير مسكويه ــ ليست تكون فى مبادئ أموره فإن مبادئ الأمور تكون مؤذية له ، ولكنها تكون فى عواقب الأمور وتكون أيضاً باقية مدة عمره وبعد عمره ، لاسيما إذا حامى عن دينه وعن اعتقاداته الصحيحة فى وحدانيـة الله عز وجل ، والشريعة التى هى سياسة الله وسنته العادلة التى بها مصالح العباد فى الدنيا والآخرة » . والشجاعة تتعلق بالعفة ، فكل شجاع عفيف حكيم ، وكل حكيم شجاع عفيف . على أن هناك أفعالا تظهر صاحبها بمظهر العفة والسخاء وهو ليس كذلك . بل يتصنع ذلك للحصول على مزيد من المال أو الشهرة أو كمن يبذل المـال فى المساخر والشهوات . وكذلك ليس يعادل من يعدل فى بعض الأمور ليصل عن طريق ذلك إلى المال أو الشهرة أو تحقيق شهوة من الشهوات لأن العادل بالحقيقة هو الذى يعدل قواه وأفعاله وأمواله كلها ، حتى لا يزيد بعضها على بعض، ثم يروم ذلك فيما هو خارج منه من المعاملات والكرامات ، ويقصد فى جميع ذلك فضيلة العدالة نفسها لا غرضاً آخر سواها » . فالعدل إذن أن يعدل الفرد بين قواه وأفعاله المختلفة فلا تطغى مثلا القوة الشهوية على العقلية ولا على الغضبية ولا تطغى الغضبية على القوتين الأخريين ، ثم يعـدل فى معاملاته مع

الناس . والعدل مشتق من معنى المساواة والمساواة هى أشرف النسب الرياضية ، فالعدل مساواة ، فإذا تعذر إيجاد المساواة استخدمت النسب للوصول للعدل كما لو قلنا نسبة ما يخص ا إلى ب كنسبة ما يخص حـ إلى د ، وتسمى هذه النسبة بالمنفصلة ، أو إذا قلنا إن نسبة ا إلى ب كنسبة ب إلى حـ وهنا تكون النسبة متصلة . ثم يتكلم مسكويه عن النسب فى الأشياء والمساحات متأثراً بالفيثاغوريين ، ثم يبين أن العدالة توجد فى ثلاثة مواضع : قسمة الأموال وقسمة المعاملات فى البيع والشراء ، ثم القسمة فى حالة وقوع الجور والظلم . ففى حالة قسمة الأموال تستخدم النسبة المنفصلة وفى حالة البيع والشراء تستخدم النسبة المنفصلة أو المتصلة . أما فى حالة وقوع الظلم فتطبق ما سماه بالنسبة المساحية ، فإذا ظلم الإنسان إنساناً آخر فإن النسبة الموجودة بينهما تكسر ويجب لرد المظالم ولرد الحال أو النسبة إلى ما كانت عليه أن يحدث له ضرر يعادل الضرر الذى أحدثه بزميله لأن العدل هو التسوية بين الأشياء غير المتساوية وإبطال الظلم لا يكون إلا بظلم مثله . وهنا نجد مسكويه يردد أقوال أرسطو فى العدل . والشريعة أو قانون الله هى التى ترسم الحدود بين الناس وتكون أساس المعاملات ، ونسبة أعمال الناس بعضهم لبعض تقدر بالدينار ليأخذ كل ذى حق حقه ، « فالدينار هو عدل ومتوسط إلا أنه ساكت . والإنسان الناطق هو الذى يستعمله ويقوم به جميع الأمور التى تكون بالمعاملات حتى تجرى على استقامة ونظام ومناسبة صحيحة عادلة . ولذلك يستعان بالحاكم الذى هو عدل ناطق ، إذا لم يستقم الأمر بين الخصمين بالدينار الذى هو عدل ساكت » . ويبين مسكويه أسباب الظلم ويلخصها فى أربعة وهى الشهوة والشر والخطأ والشقاء . ثم يقسم العدالة على ما يدعى وفق رأى أرسطو إلى ثلاثة أقسام أحدها ما يقوم به الإنسان لربه والثانى ما يقوم به للناس من أداء الحقوق والثالث ما يقوم به الإنسان من تأدية التزامات أسلافه كأداء ديونهم وتنفيذ وصاياهم . ثم يبين أثر العدالة فى سعادة الفرد والمجتمع ذاكراً رأى أفلاطون فى هذا المعنى وكيف أن وظيفة السلطان والدولة هى العدل ومنع الظلم . ويختم مسكويه هذه المقالة بإشارته إلى أن بعض العلماء ، ويقصد بعض الأفلاطونيين المحدثين ، يرون أن المحبة بين الناس هى أساس ضرورة العدالة ، فالعدالة إنما جعلت فضيلة لعدم وجود المحبة بين كل الناس . فلو سادت المحبة فى العلاقات بين الأفراد لأنصف بعضهم بعضاً وأحب لغيره ما يحب لنفسه . ومثل هؤلاء العلماء يرون أن فضيلة « التأحد » أى الحياة فى مجتمع واحد هى أشرف غايات أهل المدينة ، فإذا أحب كل منهم الآخر واتحدوا سادت السعادة الجميع . وهذه الخاتمة للمقالة الرابعة ليست إلا مدخلا للمقالة الخامسة التى يبحث فيها مسكويه ضرورة المجتمع البشرى وحاجة الناس إلى تكوين المجتمعات .

٨ — فى الاتحاد وحاجة الناس بعضهم لبعض

هنا يردد مسكويه نظرية أفلاطون من أن الإنسان تلزمه كثير من الأشياء لكى يعيش ، وهو لا يستطيع تحقيق هذه الأشياء وحده ، لذلك كان الاجتماع ضرورياً بين الناس لأنهم يكملون بعضهم بعضاً ، ولذلك أيضاً قامت المحبة بينهم . والمحبة على أنواع : فمنها التى تنعقد سريعاً وتنحل سريعاً ، وتلك هى المحبة التى تؤدى إليها اللذة لأن اللذة سريعة التغير ، ثم المحبة التى تنعقد سريعاً وتنحل بطيئاً ، وتلك هى المحبة التى تعقد

بقصد تحقيق النافع من الأشياء والأمور ، ثم المحبة التى تنعقد بطيئاً وتنحل بطيئاً وتلك هى المحبة التى تعقد بقصد تحقيق الخير . وكل هذه الأنواع من العلاقات خاصة بالإنسان لأنها لا تتم إلا بعد تفكير وروية . ثم يحلل مسكويه فكرة المحبة وأثرها فى حياة الجماعة فيبين كيف أن الصداقة نوع من المحبة ولكنها محبة خاصة تقوم على الود ، بل هى الود نفسه ، وهى تقوم بين الأحداث لتحقيق اللذة أو المنفعة ، وتكون الصداقة بين الأخيار لتحقيق الخير . وكذلك العشق الإلهى أو المحبة الإلهية نوع من المحبة وتمثل شوق الجزء الإلهى فى الإنسان إلى الاتحاد بالذات العليا التى هى من نفس جوهرها . وهذه المحبة هى المحبة فى الله وهى لا تكون إلا بين الأخيار بينما المحبات الأخرى قد تكون بين الأشرار . والمحبة هى أساس الحياة الاجتماعية وما سمى الإنسان إنساناً إلا لأنه يأنس إلى أخيه الإنسان ويجتمع به ويؤاخيه . وثمة صور كثيرة من المحبة ، كالمحبة بين السلطان والمحكومين وبين الولد والوالد وبين طالب الحكمة ومعلمها ومحبة العبد لخالقه . ويعرض مسكويه لكل من هذه العلاقات وما قد يطرأ عليها من مفاسد والظروف التى تجعل منها علاقات حسنة توطد حياة الفرد والجماعة ، ثم يتكلم عن الذين يغشون المحبة والصداقة مبيناً أن ضررهم أكبر بكثير من ضرر الذين يغشون الدرهم والدينار ويأكلون أموال الناس بالباطل. ثم يوجه نصحه للأفراد ، فمثلا فى حالة الصداقة يجب أن يكثر الفرد من مراعاة صديقه ولا يستهين بالقليل فى حقه عند مهم يعرض له أو حادث يحدث به ، وعلى ذلك فللصداقة التزامات يجب أن يقوم الفرد بها ، ومن هنا يجب على الإنسان ألا يكثر من الصداقات إلا بالقدر الذى تحتمله ظروفه وبالقدر الذى يستطيع فيه أن يفى بحاجاتها ، لأن كثرة الصداقات مع عدم القدرة على الإيفاء بالتزاماتها يحولها إلى عداوات :

عدوك من صديقك مستفاد
فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه
يكون من الطعام أو الشراب

ويطنب مسكويه فى وصف التزامات الصديق نحو صديقه . ولكن هل يقتصر الإنسان على الصداقة ؟ لا ، بل لا بد أن يصل إلى الصداقة الإلهية والعشق الإلهى وهو أسمى أنواع المحبة كما ذكرنا .

٩ — المقالتان السادسة والسابعة

فى هاتين المقالتين يبحث فى تشخيص بعض الأمراض النفسية والاجتماعية والوقاية منها وعلاجها ويخصص المقالة السادسة للوقاية كما يخصص المقالة السابعة للعلاج ، على حد تعبيره . وهاتان المقالتان ليستا إلا نوعاً من التربية للنفس . ففى المقالة السادسة يوجه النظر إلى أن الصحة النفسية تستلزم أن يعمل الإنسان فكره لأنه لو عطل نفسه عن التفكير فان هذا يؤدى بها إلى البلادة . « ومما يؤخذ به من يحفظ صحة نفسه أن يلتزم وظيفة من الجزء النظرى والعملى ، لا يجوز له الإخلال بها ألبتة ، لتجرى النفس مجرى الرياضة التى تلزم فى حفظ صحة البدن ، وأطباء النفوس أشد تعظيما لها فى فى حفظ صحة النفس . وذلك أن النفس متى تعطلت عن النظر وعدمت الفكر والغوص على المعانى ، تبلدت وتبلهت وانقطعت عنها مادة كل خير . وإذا ألفت الكسل وتبرمت بالروية واختارت العطلة ، قرب هلاكها لأن فى عطلتها هذه انسلاخاً من صورتها الأصلية ورجوعاً منها إلى رتبة البهائم ... » . وإذا كان من

الضرورى تقوية القوة العاقلة المفكرة فإن من الضرورى كذلك الاقتصاد فى الأكل والشرب وعدم المبالغة فيهما لأن الإنسان جبل على المبالغة فى اللذات الجسمية، بينما اللذات العقلية خير وأبقى وتؤدى إلى سعادة أكثر . فالذى يفكر ويروض نفسه على التفكير يصل إلى لذائذ لا يصل إليها أغنى الناس بالمال والسلطان أو الملوك . وليتخذ الإنسان من القوت ، الضرورى جداً لحفظ حياته وصحته ولا يثير رغباته الشهوية . ويجب أن يستعد المرء دائماً لمجاهدة النفس الشهوية والغضبية كمن يستعد لحرب أو للتغلب على أعداء بالعدة والعتاد والتحصن . ذلك هو الجانب الوقائى للأمراض النفسية ، أما الجانب العلاجى فهو موضوع المقالة السابعة والأخيرة . ويعدد الأمراض النفسية والاجتماعية بادئاً من الفضائل التى — كما ذكرنا — ليست إلا أوساطاً بين طرفين ، وكل من الطرفين يعد شراً . ولما كانت الفضائل أربعاً هى الشجاعة والعفة والحكمة والعدل ولما كانت كل فضيلة وسطاً لطرفين مرذولين فإن عدد الرذائل يكون ثمانياً وهى التهور والجبن وهما طرفا الشجاعة ، والشره والخمول وهما طرفا العفة ، والسفه والبله وهما طرفا الحكمة والجور والمهانة أو الظلم والانظلام وهما طرفا العدالة . ويستعرض مسكويه هذه الرذائل واحدة واحدة فيبين سببها ومظاهرها ويبين السبيل إلى الخلاص منها فالتهور مثلا سببه الغضب الذى يأتى من اعتلال النفس الغضبية وذلك فى حالة المزاج الحاد اليابس الذى يثور لأتفه الأسباب . أما الأسباب المولدة للغضب فهى العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والاستهزاء والغدر والضيم وطلب الأمور اللذيذة التى يتنافس عليها الناس ويتحاسدون ... ويتناول مسكويه ما تؤدى إليه هذه الرذائل من رذائل أخرى ويبين خطرها فى حياة الجماعة . والعلاج فى ترويض النفس وتمرينها أو مجاهدتها حتى تصير فى حدود عادية ، ففى حالة التهور تمرن النفس الغضبية حتى لا تثور لأتفه الأسباب وحتى تخلد للحلم ، أما فى حالة الجبن فنجد النفس الغضبية بالعكس فى حاجة إلى أن تستيقظ وتقوى بحيث «توقظ النفس التى تمرض بهذا المرض بالهز والتحريك» فمثلا يحكى عن بعض المتفلسفين أنه كان يتعمد مواطن الخوف فيقف فيها ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتعرض لها ويركب البحر عند اضطرابه ليعود نفسه الثبات فى المخاوف . بالتمرين إذن والمجالدة العملية يصل الإنسان إلى علاج نفسه من هذه الأمراض وما يتبعها من عوارض .

ويلاحظ أن مسكويه قد اعتمد فى هاتين المقالتين على الفكر اليونانى فى الفزيولوجيا ولا سيما كتب جالينوس وعلى رأسها كتاب الأخلاق ، وكتاب « فى تعريف المرء عيوب نفسه » وكتاب التشريح ومنافع الأعضاء ، وذلك إلى جانب كتاب بقراط وبريس .

١٠ — تعليق وخاتمة

تلك هى فى عجالة محتويات كتاب التهذيب ، ويلاحظ أن المؤلف قد اعتمد فيها فى معظم أجزائها على الفلاسفة والعلماء اليونان . ولكن أهمية هذا الكتاب ترجع إلى أنه قد وجه النظر إلى المجتمع ، والحياة الاجتماعية وكيف أنها يجب أن تكون محل دراسة ، وذلك فى وقت كانت الفلسفة الإلهية والميتافيزيقية قد ملكت على المفكرين كل تفكيرهم . فهذا الكتاب إلى جانب كتاب أهل المدينة الفاضلة للفارابى وغيره من الكتب التى كانت تعالج مسائل السياسة والعلاقات بين الأفراد

كانت بمثابة درجات صعد عليهـــا الفكر العربى والإسلامى حتى وصل فى نهاية الأمر إلى أوجه فى تفكير أبى عبد الرحمن بن خلدون عندما أنشأ علم العمران فى مقدمته فى القرن الثامن ووضع أسسه وحدد موضوعه والنهج الذى يقوم عليه . فكتاب التهذيب بالرغم من المسحة الفلسفية التى تغلب على بعض مباحثه ينهج النهج العلمى الاجتماعى السليم فى كثير من المواضع عندما يعالج مثلا ظواهر السلوك فى المجتمع وأنواع السعادات التى يبتغيها الناس ، والعلاقات الاجتماعية التى أساسها المحبة ، ثم الأمراض النفسية والاجتماعية... وهو فى كل ذلك يصف الظواهر الموجودة بالفعل وبشكل موضوعى صرف ، ويستنتج منها النتائج ، وذلك هو المنهج العلمى . ولربما يعمد فى أحيان كثيرة إلى تفسير الوقائع تفسيراً فلسفياً أو دينياً ولكن هذا التفسير لا يقلل من القيمة العلمية للمنهج الذى سار عليه لأن هذه التفسيرات على فرض عدم صحتها تبين الوسط العلمى الذى كان يعيش فيه المؤلف وما وصل إليه العالم آنذاك من مستوى ثقافى وحضارى .